٩ – تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصل الثاني

لم ينس العرب هذه الحوادث فبعثت فيهم الكبرياء القوى، فقالوا إن الجيوش الرومانية سارت ذات مرة – على أية حال – تحت لواء أميرة عربية، ولكن القصة – كما نستدل من أخبارهم – ذات صلة قليلة بالواقع، ولم يقتصر التغيير على اسماء الأشخاص والأماكن فحسب، (كما حدث في اختلاط اسم زينوبيا باسم وزيرها زبدى) بل إن الوضع التاريخي قد أصبح مستحيلاً على التمييز. وكل ما بقي لا يتعدى قصة من قصص المخاطرات التي كان عرب الجاهلية يميلون الى سماعها، وكما هو الحال اليوم في أبنائهم المحدثين الذين لا يملون سماع قصة عنترأو ألف ليلة وليلة

ويقال إن أول ملك من العرب الذين استقروا في العراق[١] هو مالك الأزدى الذي رمى بقوس من يد ابنه سليمان وقبل أن يسلم الروح قال بيتاً راح فيما بعد مضرب المثل:

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وقد وحد مملكة مالك – إذا جاز أن توصف بهذا اللقب – ونظم أمورها ابنه جذيمة الأبرش (وهو تصحيف أدبي لكلمة أبرص)، الذي حكم كتابع لأردشير بابكان (٢٢٦ م) مؤسس الدولة الساسانية في فارس، التي استمرت مسيطرة على عرب العراق طول فترة ما قبل الاسلام، وإن جذيمة هذا لبطل كثير من الخرافات والأمثال، وكان من كبريائه – كما يقال – إنه لم يكن ليسمح لأحد ما بمجالسته ومنادمته سوى نجمين يسميان بالفرقدين، فاذا ما عاقر الحان صب لكل منهما كأساً، وقد علقت أخته بوصيف له يدعى «عديا بن نصر»، وفي لحظة لعبت الخمر برأس جذيمة رضى بزواجها إياه، فبنى عدى بهما؛ وفي الصباح، عندما عاد أخوها إلى رشده، وثاب الى صوابه تميز من الغيظ من تلك الخديعة التي جازت عليه فأطاح رأس الزوج المسكين، وأرغم أخته أن تتزوج من عبد حقير، ومع ذلك فلما وضعت غلاماً تبناه جذيمة وكلأه بعطفه وحدبه؛ واختفى الشاب عمرو ذات يوم فجأة ويئس الجميع من وجوده، وانقضى زمن طويل لم يعثر أحد فيه له على أثر حتى صادفه أخوان: هما مالك وعقيل، وقد وجداه عرياناً متوحشاً يهيم على وجهه، فاعتنيا به وألبساه ومثلا به أمام الملك الذي غلب عليه السرور فوعدهما ألا يرد لهما طلبة يسألانه إياها، فاختارا الشرف الذي لم يجرؤ على طلبه إنسان قبلهما قط: وهو أن يكونا نديميه، وعرفا فيما بعد باسم «ندماني جذيمة»

وكان جذيمة هذا أميراً مفكراً شجاعاً، وفي إحدى حملاته ذبح عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة، وهو رئيس عشيرة عربية كان قد ضم جزءاً من سورية الشرقية وأرض الجزيرة إلى نفوذه، والذي يتضح لنا أنه (كما هو ظاهر من اسم أذينة) كان بينه أذينة زوج زينوبيا، يؤيد هذا الرأي ما قاله ابن قتيبة «وخطب جذيمة الزباء، وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها[١]» وطبقاً لما يراه المؤرخون المسلمون، فقد كانت الزباء ابنة عمرو بن ظرب، واختيرت لتكون خليفته، بعد ترديته في ساحة القتال، ومهما يكن هذا الأمر فقد برهنت على أنها امرأة نادرة الشجاعة ذات عزم جبار، ولكي تأمن شر الثارات شيدت حصنين قويين على شاطىء الفرات جعلت بينهما نفقاً، وأقامت هي في أحدهما وسكنت أختها زينب في الآخر، فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة ثأرة لأبيها فكتبت تقول له إنها قد رغبت في صلة بلدها ببلده، وإنها في ضعف من سلطانها وقلة ضبط لملكها وإنها لم تجد كفؤاً غيره، وتسأله الاقبال عليها وجمع ملكها إلى ملكه؛ فلما وصل ذلك إليه استخفه الطرب ولم ينتصح برأى مشيره، فقال له قصير مرشده في طريقه «انصرف ودمك في وجهك» حتى إذا شارف مدينتها قال لقصير: «ما الرأى» قال: «ببقة تركت الرأى»

(٢) هؤلاء هم نفس بدو عرب تنوخ الذين صاروا فيما بعد سكان الحيرة كما ميسر بك

(١) Brünnow : Chrestomathie aus Arabischen Prosa - schriftstellen, P.29

فراحت مثلاً، ثم استقبله رسلها بالهدايا والالطاف فقال : « ياقصير كيف ترى ؟ » قال : « خطر يسير فى خطب كبير ، وستلقاك الخيول ، فأن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت فى جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون ، اركب العصا (أى فرسه) فانها لا تدرك ولا تسبق قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك » فلم يفعل ، ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا ، وقد بعدت ثلاثين ميلاً ، وأدخل جذيمة على الزباء ، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه فى طست من ذهب وقالت : « يا جذيمة لا يضيعن من دمك شىء فأنما أريده للخبل » ، ثم سقطت نقطة من دمه على اسطوانة رخام ومات

ومضى قصير الى عمرو بن عدى وطلب إليه أن يثأر لخاله ، فقال عمرو : « كيف وهى أمنع من عقاب الجو » ، فجدع قصير أنفه وأذنه ودخل على الزباء ، وأخبرها أن عمراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدى ما ظن أنه يرضيها ، وانصرف به إليها ، ففرحت به ، ثم قال لها يوماً : « إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وقد ينبغى له أن يتخذ نفقاً يهرب إليه عند حدوث حادثة يخافها » فقالت له : « قد اتخذت نفقاً تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى » وأرته إياه ، فأظهر لها سروره بذلك وخرج فى تجارته وعرف عمرو بن عدى ما فعله ، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسوق الابل وقال لها : « اسعدى فى حائط مدينتك فانظرى الى مالك وتقدمى الى بوابك » ، فلما دخل آخر الجمال نحس البواب عكما من الأعكام ، فأصاب خاصرة رجل فصاح ، فقال البواب : « شر والله عكمتم به فى الجوالق » فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة ، فلقيت عمرو بن عدى فصت خاتمها ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو[1] »

ولقد بلغت الثقافة فى مملكتى الحيرة وغسان فى عصر ما قبل الاسلام شأواً بعيداً فى الرقى وشمشمت أنوارها ، وعم أثرها جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وليس من الاسراف فى القول أن نذكر فى هذا المجال تاريخ وملابسات الظروف ، التى مكنتهم من القيام بنشر الرقى والحضارة [1]

فى مستهل القرن الثالث بعد الميلاد كانت هناك بعض قبائل يرجع كلها أو بعضها الى أصل يمنى ، وقد عقدت فيما بينها حلفاً وسميت فى مجموعها « بتنوخ » ، وكانت تلك القبائل تثير بين آن وآخر كثيراً من الاضطرابات ، وانتشرت فى جميع ربوع امبراطورية Arsacid ، وأغارت على العراق ، حتى ألقت عصا التسيار فى إقليم غرب الفرات الخصيب ، وبينما ظل بعض المغيرين يحيون حياة بدوية محضة ، اشتغل آخرون بفلاحة الأرض وزرعها ، وعلى كر الأيام نشأت المدن والقرى ، وكان أعظمها أهمية الحيرة (أى المعسكر) ذات الموقع الصحى الجميل وعلى مسيرة عدة أميال قليلة من جنوب الكوفة ، بالقرب من بابليون القديم [2] ، وطبقا لما ذكره هشام بن محمد الكلبى (+ ٨١٩ أو ٨٢١ م) المؤلف العظيم عن عصر الجاهلية ، فقد كان سكان الحيرة فى عهد أزدشير بابكان أول ملك ساسانى لفارس (٢٢٦ — ٢٤٠ م) يتكونون من ثلاث طوائف هى :

(١) تنوخ : وتسكن غرب الفرات بين الحيرة والأنبار فى طنب من وبر الجمال

(٢) العباد: ويسكنون البيوت فى الحيرة

(٣) الأحلاف : ولم يكونوا ينتمون الى إحدى الطائفتين

---

(١) لخصنا هذه القصة مما ورد فى الأغانى ج ١٤ ص ٧٣ س ٢٠ وراجع الطبرى ج ١ ص ٧٥٢ — ٧٦٦ ، والمسعودى فى مروج الذهب طبعة باربيه دى مينارد ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٩

(١) وعلى ذكر الحيرة وتاريخها يمكن القارئ مراجعة المقال الرائع الذى كتبه الدكتور G. Rothstein عن دولة اللخميين فى الحيرة : Die Dynastie der Lahkmiden in Al Hira (برلين ١٨٩٩) حيث يبين مصادر المقال (ص ٥٠ وما يليها) ، كما أن ما وصفه الكتاب اليهود والبيزنطيون مما رأوه بأعينهم لتبين القيمة فى ذكرهم التسلسل التاريخى الذى يرويه المؤرخون المسلمون على سبيل الحدس ، وإن التواريخ الاسلامية عامة لتشمل فصولا بعضها خرافى عن « ملوك الحيرة وغسان » ويجب أن تتخذ الحيطة والحذر الشديدين خاصة فى الجزء الذى نقله الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى ، والذى ترجمه نلدكه وعلق عليه فى : Geschicte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden

وقد رجع هشام إلى السجلات المحفوظة فى كنائس الحيرة ويدعى بأنه استخلصها من شروح تاريخية ، ونسبية تتعلق بأسرة اللخميين (راجع الطبرى ج ١ : ص ٧٧٠ س ٧)

(٢) الحيرة هى حيرتا السريانية ، وقد أطلق اسمها على المعسكر المتنقل من العرب والفرس ثم ظلت إشارة وإسماً للمدينة العسكرية

السابقتين بل ألحقوا أنفسهم بأهل الحيرة ، وعاشوا بينهم كأنهم آبقون قتلة يلاحقهم الثأر ، أو مهاجرون موزون يحاولون الاطمئنان على مستقبلهم

وطبيعى أن يؤثر أهل المدن الى حد بعيد فى السكان ، ولقد رأينا هشاما يسميهم « العباد » وهذا لفظ غير دقيق تماما إذ العباد عرب الحيرة المسيحيون ، وقد سموا بذلك لاعتناقهم النصرانية ، أما العرب الوثنيون الذين سكنوا الحيرة منذ أن أنشئت ، وظلوا مقيمين بها ، فلم يكونوا يدلون على نقيض المعنى المفهوم من الوثنية . أما لفظ « العباد » فيقصد به خُدَّام الله والمسيح ، ولا نستطيع أن نحدد تماماً أيان بدئ اطلاق هذا اللقب على أولئك المتدينين الذين كانوا من قبائل مختلفة ، كانت تسكن الحيرة أثناء القرن السادس ، وليست التواريخ ذات قيمة كبيرة نسبيا ، بيد أن الأمر الذى تجب الاشارة اليه ، هو وجود جماعة عربية فى فترة ما قبل الاسلام لم تكن قائمة على صلات الدم أو تجمعها العصبية ، ولكن تربطها روابط روحية أعنى بذلك الايمان العام . أما ثقافة وديانة « العباد » فقد تسربتا الى أقصى الأماكن والجهات النائية المنعزلة فى شبه جزيرة العرب كما سترى ذلك مفصلا فى مكانه الخاص ، وكان هؤلاء أساتذة العرب الوثنيين الذين قليلاً ما كانوا يقرأون أو يكتبون كما كانوا عازفين عن التعلم فخورين بجهلهم بالتهذيب الذى يرون فيه نوعاً من المذلة ، ومع ذلك نرى أن أرقى العقول تقافة بين البدو كانت مجذوبة بلا نزاع الى الحيرة ، ولقد وجد شعراء هاتيك الأيام فى الأمراء خير مشجع ، فزار كثير من شعراء الجاهلية بلاط اللخميين كما اتخذها بعضهم كالنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص دار اقامة

وليس من المهم أن ندخل فى تفاصيل غير مجدية كأصل ونشأة دولة اللخميين فى الحيرة ، ويذكر هشام بن محمد الكلبى [(١)] ان أول حاكم لخمى كان يدعى « عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم » وهو الذى تبنى جذيمة والذى انتقم له من الملكة الزباء ، ولسنا ندرى فى الغالب شيئاً عن خلفائه ، حتى نصل الى النعمان الأول المسمّى بالأعور ، والذى كان حكمه فى الربع الأول من القرن الخامس الميلادى ، وقد اشتهر النعمان هذا بأنه بانى الخورنق ، وهو قصر فخم بقرب الحيرة بناه فى عصر الملك الساسانى يزدجرد الأول الذى أراد مسكناً صحياً لابنه الأمير بهرام جور ، وعند اتمامه أمر النعمان بأن يلقى مهندسه الرومانى سنمار من شاهق البنيان ، إما لافتخاره بأنه كان يستطيع إقامته بناء عجيباً يدور مع الشمس حيث درات ، أو خوفاً من أن يذيع مكان حجر خاص اذ أزيح من مكانه انهار البناء كله . وفى صباح يوم من أيام الربيع أخذ النعمان مجلسه فى الخورنق مع وزيره ، وأشرف على النجف وحدائقها وما فيها من نخيل وعيون ، وأدار بصره فى جميع النواحى شرقاً وغرباً ، فلما امتلأت نفسه بسحر ما رأى قال لوزيره :

— أرأيت مثل هذا ؟

— كلا . ولكن لو دام !

— وما الذى يخلد ؟

— ما عند الله فى السموات

فسأله النعمان : كيف يتوصل المرء إلى ذلك ؟ فأجابه الوزير : بالعزوف عن الدنيا والتفانى فى خدمة الاله ، والكفاح من أجله . ويقال إن النعمان آلى على نفسه حينئذ أن يهجر مملكته ، حتى اذا ما أقبل الليل تدثر بثوب خشن ، وتسلل فى جنح الظلام ، وساح فى الأرض فلم يره أحد بعد ذلك ؛ ويظهر أن هذه الأسطورة قد تبلورت وتضخمت من هذه الأبيات التى نظمها عدى بن زيد العبادى :

وتدبّر ربّ الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكيرُ
سره حاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحرُ معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : «وما غبـ ـطة حى الى الممات يصيرُ ؟
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـة وارتهمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف (م) فألوت به الصبا والدبور [(١)]

أما ما رواه جمهرة مؤلفى العرب من اعتناق النعمان المسيحية فليس له أساس من الصحة ، وإن كان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأنه كان ميالاً إليها ، إذ كانت الحرية الدينية مطلقة لرعاياه المسيحيين ، كما ورد ذكر حبر مسيحى بالحيرة سنة ٤١٠ م

(يتبع) ترجمة حسن حبشي

(١) ذكر هشام بن محمد الكلبى أسماء عشرين ملكا حكموا مدة ٥٢٢ عاما وثمانية أشهر

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، والطبرى ج ١ ص ٨٥٨